رواية تنكرد

للوزير الشهير اللورد بكنسفيلد

الفصل الخامس

كان في دمشق الشام امير من الشهابيين اشتبك في بعض الحروب الاهلية التي سبقت انقراض الانكشارية فاصيب بجرح بالغ قضى به. وقبل ان فاضت روحهُ استدعى بسو التاجر اليهودي وسلمهُ ابنهُ وكان طفلاً رضيعاً وتوسل اليهِ ان يعتني بتربيتهِ لان امهُ كانت قد ماتت في النفاس . فاخذت زوجة بسو هذا الطفل وارضعتهُ من لبنها وربتهُ كأنهُ ابنها

هذا هو فخر الدين المذكور في الفصول السابقة. وولد لبسو ابنة سماها حواء فربيت مع فخر الدين وهو يحسبها اختهُ وهي تحسبهُ اخاها وكانت اصغر منهُ بثلاث سنوات فلما ترعرع وعلم انها ليست اختهُ حزن حزناً شديداً لكن حبهُ لها بقي على حالهِ

وكان فخر الدين وريثاً لاملاك واسعة في جبل لبنان وله فيهِ دار كبيرة يستطيع ان يعيش فيها مثل ملك مستقل . حتى اذا بلغ العاشرة من العمر طلبهُ عمهُ الامير بشير الشهابي الكبير وكان والياً على جبل لبنان لكي يقيم في دارهِ يتربى مع اولادهِ فترك بيت بسو في دمشق مضطرًّا واتى الى بيت الدين في جبل لبنان وكاد فؤادهُ ينفطر لما ودّع حواء وامّها . ودارُ الامير بشير في بيت الدين من اعظم دور الامراء الشهابيين واجملها موقعاً. وقد حدث ذلك حينما دخل ابرهيم باشا بالجنود المصرية بلاد الشام وكان الامير بشير وسائر الامراء الشهابيين وبيت بسو ممالئين للمصريين على الدولة العلية ولهم اليد الطولى في فوز ابرهيم باشا عليها. ودعت الحال حينئذٍ الى مكاتبات كثيرة بين الامير بشير وبيت بسو في دمشق وكان فخر الدين يكثر التردد على دمشق فتراهُ حواء ويتجدّد الحبُّ والاخاء بينها وبينهُ . وسنة ١٨٣٩ كان فخر الدين قد صار في الخامسة عشرة من عمرهِ وكانت القلاقل قد سكنت في بلاد الشام لانهُ كان فيها من الجنود المصرية المنظمة ثمانون الفاً تعضدهم اعظم دول اوربا الجربة وكانت الحكومة العثمانية قد ضاقت بهم ذرعاً ولم تزَ من الحكومة الانكليزية عضداً ظاهراً في اول الامر ثم لما عضدتها أُخرجت المصريين من القطر الشامي فكان ذلك ضربةً قاضية على سلطة الامير بشير وعلى فروع بيت بسو المقيم في دمشق . لكن التجار ارسخ قدماً من الامراء فأمر الامير بشير واولادهُ ان يغادروا دارهم في بيت الدين ويمضوا الى الاستانة . ولما بلغ فخر الدين فتح عكاء هرب الى بلاد العرب ونزل ضيفاً على جد حواء ابي امها . وهرب بسو بزوجتهِ وابنتهِ الى تريسته وبقي في بلاد

النمسا نحو اربع سنوات واخيرًا توسط الصيدوني واصدقاؤهُ امرهُ لدى الباب العالي فعاد الى دمشق بعد ان اقنع رضى باشا ببراءتهِ على الاسلوب الذي يقنع بهِ ذلك الوزير. وتوفيت زوجتهُ وهو في بلاد النمسا ولم يفقد شيئًا من ثروتهِ لان اخوتهُ اداروا شؤونها وهو مهاجر وكان ولاة دمشق لا يستغنون عنهم ولولا اضطرارهُ الى المهاجرة بغتةً لاستطاع ان يصلح امرهُ مع الوالي كما اصلحهُ مع رضى باشا بعد ثم ولم يهاجر

وكان فخر الدين شديد الفراسة غيورًا عجولاً قليل الصبر كبير النفس كبير المطامع وقد ربي والقطر الشامي في اشد الاضطراب والدسائس باب السياسة ومفتاحها. وكان عمهُ الامير بشير يعجب بنجابتهِ وذكائهِ ولا يحاذر من التكلم امامهُ عن احوال السياسة فشبَّ وهو يحسب ان النجاح رهين الدهاء. والرجل الداهية يفلح في مطالبهِ مهما كانت وان حسن السياسة يقوم بان يخفي المرء ما فيهِ ويتظاهر بما ليس فيهِ ويفاوض دولتين متحالفتين وحزبين متناقضين مفاوضات سرية في وقت واحد ويُعرب عن استعدادهِ للعمل بكل الآراء التي تُعرَض عليهِ ولا يعمل برأيٍ منها. ويشارك في كل الاعمال ويتجنَّب كل نتائجها. ويتخذ الناس كلهم سكتًا ولا يفعل الاَّ ما يعود عليهِ بالنفع الخاص. هذه هي اصول السياسة التي ربي عليها وتخرَّج فيها وحسب انها باب النجاح. وكان يحسب ان الرجل النذب من احدق اليهِ الناس بابصارهم والسعيد من نظروا اليهِ نظر الدهشة والاعجاب

وكان يكيد المكايد كما يشرب الماء وسرتهُ العظمى في ان ينصب الاشراك للناس ثم يجيبهم منها وهو يحسب ان الدنيا كلها قوةٌ او خدعة. وهذا جلُّ ما اتصل اليهِ من معاشرتهِ للامراء والعظماء الذين كانوا في عصرهِ. وكان يفضل الخدعة على القوة لان فيها مهارة ودهاء ولانهُ كان رقيق القلب رقيق العواطف

وكان يفخر بالجري على اسلوب اهل السياسة من اخفاء ما فيهِ والتظاهر بما ليس فيهِ لكنهُ لم يكن ماهرًا في ذلك فكان اذا آنس من امرءٍ اقل ميل اليهِ اطلعهُ على كل دخائلهِ. وكذلك اتخاذهُ الناس آلات لاغراضهِ لم يكن يعنيهِ من اطلاعهم على مقاصدهِ ولو عن طيش لا عن قصد فيغترُّون بهِ ويحسبون انهم نجوا من مخالبهِ ولكنهُ لا يلبث ان يوقعهم في شرَكٍ آخر في لحظة من الزمان لشدَّة ذكائهِ ودهائهِ كأن الطيش احدى حظَيَّاتهِ. وكان شديد الجرأة كما كان شديد الدهاء لكنهُ لم يكن شجاعًا شجاعةً ادبية فاذا حيطت مساعيهِ لعارض طرأ عليها او فترت همتهُ لضعف تولى اعصابهُ واخمد ذكاء عقلهِ خارت قواهُ وجعل يبكي كالطفل الصغير ثم هو لا يأنف من كل عمل يخوجهِ من تلك الورطة مهما كان دنيئًا

لما بلغهُ ان الامير بشير واولادهُ مشوا الى الإستانة وحُجر عليهم فيها عاد الى لبنان وتظاهر بصادقة الدولة العلية والقيام على ولائها وجعل يحاسن الامراء والمشايخ الذين حولهُ حتى التفَّ عليهِ حزب كبير منهم وهو في السابعة عشرة من عمرهِ . وكانت الدولة تنوي اخضاع الجبل اخضاعًا تامًّا وتعيين والٍ عليهِ من قبلها لكنها رأت ان الزمن لم يحن لذلك وانهُ لا بأس بشد ازر هذا الامير ما دام مقيمًا على ولائها . وكثر تردُّد الامراء والمشايخ على دارهِ وكلٌّ منهم يحسب انهُ المرشد لهُ وهو يلعب بهم لعبًا ولو كانوا اكبر منهُ سنًّا واكثر حنكةً حتى اذا عاد بسّو الى دمشق الشام سنة ١٨٤٣ رآهُ قد صار في مقدمة الامراء الشهابيين فعُقدت القلوب على حبهِ وولائهِ وكان عمرهُ حينئذٍ تسع عشرة سنة وعمر حواء ست عشرة سنة . وبلغهُ وصول بسو الى دمشق فاسرع اليهِ وقبَّل يديهِ كأنهُ اباهُ وضمَّ حواء الى صدرهِ والدموع تهطل من عينيهِ وتعانقا معانقة الاخوة ثم اخبرهما بكل ما جرى لهُ ولم يخفِ عنهما شيئًا . واخيرًا طلب من بسو ان يقرض الجبل مبلغًا من المال لكي يبتاع بهِ اسلحة فيستقل تحت امارتهِ وامارة حواء . وكان بسو قد انقذهُ من مشاكل عديدة ووفى عنهُ ديونًا كثيرة لتجار بيروت وصيداء اما الآن فلم يرُق لهُ ان يساعدهُ في عمل سياسي مثل هذا قد يعود عليهِ بالخراب والدمار او بالنفي المؤبد لاسيما وانهُ رأى ما حلَّ بالامير بشير ومحمد علي باشا لان دول اوربا لا تريد ان يحدث اقل تغير في بلاد الشام لئلاَّ يكون ذلك داعيًا لحل المسألة الشرقية ولم يصدّق ان فخر الدين يقلح في ما عجز عنهُ عزيز مصر

اما حواء فلم تكن من رأي ابيها لانها كانت شديدة الاركان الى فخر الدين وقالت في نفسها انهُ ليس عزيز الجانب مثل محمد علي ولكنهُ ارسخ منهُ قدمًا لان البلاد بلادهُ وقد حكمها اسلافهُ سنين كثيرة . وكانت تثق ايضًا باصلهِ العربي وتأنف من ان ترى دولة اوربية متسلطة على بلاد الشام ومرجعة اليها عصر الصليبيين فنظرت اليهِ كأنهُ الرجل الوحيد القادر على انقاذ لبنان وبلاد الشام كلها من الوقوع في قبضة الاوربيين وشفعت فيهِ الى ابيها سرارًا فاعطاهُ ووفى عنهُ الى ان ضاق بهِ ذرعًا وآلى على نفسهُ ان يمنع عنهُ كل مساعدة مالية في المستقبل . فحملت حواء تعطيهِ من جواهرها ولجأت الى اولاد عمها فساعدوهُ على قدر طاقتهم فكاد يسلبها اموالها وهو يتودَّد اليها و يظهر لها الحب الشديد وكان يحبها حقيقةً ويخضع لاوامرها صاغرًا وكانت نظرة منها تبهجهُ او تنغص عيشهُ فيكون امامها كالطفل الصغير وهو يحسب ان طالعها سعد فلا يقلح من يخالف لها امرًا لكنهُ اذا غاب عنها نسي ما يشعر بهِ وهو في حضرتها وركب هواهُ وقد يفشي سرها ولو كان حبها متسلطًا على فؤادهِ . وهذا شأن من كان عديم الرأي

متقلباً مع الاهواء مؤثراً لنفسه لا يرى غير نفعها

لو اقترن بحواء لتدمثت اخلاقهُ وقلَّ تقلبهُ مع الاهواء . وكان يودُّ الاقتران بها لا شغفاً بها ولا رغبة في مساعدتها لهُ على التخلق بالاخلاق النبيلة بل طمعاً بغناها لكي يكون لهُ منهُ ما يساعد الجبل على استقلاله . اما هي فكانت مخطوبة الى ابن عمها ابن بسو الحلبي وقد خُطبت وهي في فينا وقرَّ القرار على الاحتفال بزفافها حينما تبلغ الثامنة عشرة من العمر وقد قرب هذا الميعاد الآن ولم يبقَ لهُ الاَّ بضعة اشهر

وكانت قد الفت القول بانها مخطوبة لابن عمها حتى صارت تحسبهُ من الامور المحتومة عليها كالحياة والموت فلم تعد تفتكر بهِ بسرور ولا بكدر . ولو كان قيادها بيدها ما اختارت فخر الدين زوجاً لها لانها كانت تنظر اليهِ نظر الاخت الى اخيها . وحسب عادة البلاد كاشف فخر اباها بغرضهِ ووعدهُ بان تبقى زوجتهُ على دين قومها ويتبعها اولادها في دينها فيصير امير لبنان من امة اليهود . فقطع بسو كلامهُ بقولهِ انها مخطوبة لابن عمها فلا مجال للكلام في هذا الموضوع

قلنا في فصل سابق ان فخر الدين زار حواء في بيت عنيا حديثاً واطلعها على ما اضمرهُ للامير الانكليزي فارتعدت فرائصها وسفهت رأيهُ وشددت عليهِ النكير . ولما رأى منها ذلك اتصاع اليها وعرض عليها رأياً آخر وهو ان صديقاً لهُ من تجار الانكليز في بيروت وعدهُ بالمال اللازم لهُ ان هو نجح في مطل شريف افندي التاجر المصري شهراً او شهرين وطلب منها ان تسعى لهُ في ذلك لدى شريف افندي . فرأت ان السعي في هذا السبيل ممكن لها ولا ضرر منهُ فسُرت لانها وجدت سبيلاً لمساعدتهِ لا يضرُّ باحد ووعدتهُ بالمجيء الى المدينة في اليوم التالي لكي تكلم شريف افندي في امره . فودَّعها والدموع ملء عينيهِ وخرج وكان قد اقنع شريف افندي ان بسو يكفلهُ على دفع ثمن البنادق ونفقات نقلها واتفقا على ان يلتقيا في القدس لهذه الغاية ولما جاء القدس ودخل بيت بسو رأى شريف افندي في انتظارهِ ثم لما رأى الاعراض من بسو زار حواء وعرض عليها المكيدة التي كادها لتنكرد واتفق معها اخيراً على ان تقنع شريف افندي ليمهلهُ ان دفع المال شهراً او شهرين كما تقدَّم ثم عاد الى شريف افندي وقال لهُ ما قولك لو ضمن لك المال شخص آخر مثل بسو . فقال سيان عندي فقال فخر الدين ان حواء ابنة بسو مثل ابيها فقال شريف افندي على الراس والعين . فقال فخر الدين وقد تطلب منك المهلة مدة وجيزة اذ لا بد لها من مكاتبة بعض ذوي قرباها في حلب أتعرف حلب

— نعم وحلب والشام صنوان ورضيعا لبان

— اذاً ارجو من فضلك ان تسلم بما تطلبهُ حواء منك فقد فهمت منها انها عازمة ان

تطلب مهلة ثلاثة اشهر فان النساء كثيرات الحذر كما لا يخفى عليك وهي تقول ربما سُرق المال في الطريق او ربما ضاع مفتاح الخزانة. فقد فهمت مرادي وفي الميعاد ناتي في غزة لاستلام البنادق

وفي الصباح التالي قامت حواء ولبست ازارها وتبرقعت وركبت جوادها وتبعتها اثنتان من جواريها وسار امامها القوّاس وهو مدجج بالسلاح ومشى بجانبها اربعة من السواس ودخلت القدس من باب صهيون وسارت الى بيت ابيها وقابلت شريف افندي ثم دعت فخر الدين واخبرته ان شريف افندي رضي ان يبقي الاسلحة عنده ثلاثة اشهر وهو اي فخر الدين يدفع اليه ربا ثمنها الى ان يتمكن التاجر الذي في بيروت من دفع الثمن كله

فشكرها واكثر من كلام التودّد والمجاملة واخبرها انهُ عائد الى بيروت سريعاً ليسعى في تدبير المال المطلوب

الفصل السادس

قام تنكرد من القدس قبل الفجر ومعهُ باروني وخادمان وكلهم بالاسلحة الكاملة وامامهم الشيخ حسن الجلاّح شيخ عرب الجلاحة وهو طويل القامة عبوس الوجه يدمو رمح طويل فيهِ كرة من ريش النعام تحت سنانهِ وقد تقلد سيفهُ وتنكب بندقيتهُ وخرجوا كلهم من باب بيت لحم

في بلاد الشام شيء يراهُ المرء قبل بزوغ الفجر قلما يراهُ في غيرها يراهُ ويشعر بهِ فيزيد جسمهُ نشاطاً وروحهُ خفّةً . يشعر كأن ملائكة السماء قضت الليل فوق تلك الجبال ويشم للهواء رائحة عطرية وينظر الى الطبيعة فيراها قد لبست حلة البهاء والسكينة ونامت كطفل يستيقظ باسماً وهو لا يدرك شيئاً من هموم الحياة. وقد انحطت البلاد وزايلها مجدها السالف ولكن الراحة والسكينة لم تزولا منها . وزاد ضعفها بازدياد القوة عند جيرانها الاوربيين لكن طباع اهلها لا تزال مثل طباع بلادهم وهي طباع اهالي اسيا عموماً تراها اميل الى الطبيعة منها الى الصناعة والى البساطة منها الى التركيب والتعقيد . هذه هي الحالة الفطرية التي بعُدت عنها اوربا بابتعادها عن العرب واهالي الشام الذين اخذت عنهم مبادئ العمران

ثم بزغ الفجر ووقعت اشعة الشمس على الظباء وهي تثب فوق التلال ورأتها الخيال فنادى بعضها بعضاً من بين الصخور كما كانت تفعل في عهد الانبياء . ووقف تنكرد ورفاقهُ عند قبر راحيل بين القدس وبيت لحم وكان عشرون من الجلاحة في انتظارهم هناك وهم رجال الشيخ حسن اتوا لحراسة تنكرد في ذهابهِ الى جبل سينا . والذي دبّر ذلك باروني وكان يعرف هذا

الشيخ وبأمنهُ وقد سُرَّ تنكرد لان باروني لم يخبر فنصل الانكليز بعزمهِ على زيارة جبل سينا ولو اخبرهُ لدرى بهِ الكولونل براس ولبس عدَّة حربهِ ورافق تنكرد الى جبل سينا رغمي او لم يرضَ

وقد مضى على تنكرد الآن خمسة ايام بعد ان زار بيت عنيا وشاهد فيها حواء وكان يودُّ ان يعرف من هي وهو يعلم ان باروني يستطيع ان ينبئهُ بذلك ولكنهُ لم يشأ ان يكلمهُ في هذا الموضوع اتقةً لا حذرًا . وزدْ عليهِ انهُ كان في ذلك الحين مشغولاً على اصحة الامل حاسبًا ان الله سيعلن لهُ نفسهُ على اسلوب خاصٍّ وانهُ قد ترفَّع عن الدنيا ومطالبها وصار شغلهُ الشاغل وهمهُ الوحيد في الامور السموية . وكان قد قضى الايام التي اقامها في القدس بالصوم والصلاة والرياضة الروحية وزيارة المشاعر المقدسة والمذاكرة مع رئيس الدير الوزير لارا في المواضيع الدينية وهو يحاول ان يكتشف غوامض المشرق . ولم يكاشفهُ بشيء من السماء لكنهُ سُرَّ وتعزَّى كأن طهارة الارض المقدسة ملأت قلبهُ طهارةً

وذات يوم كان يتحدث مع الاب لارا في هذه الامور واشكالها فاشار عليهِ ان يمضي الى جبل سينا فاصاب شورهُ اذنًا صاغية

ولما صار هو ورفاقهُ على مرأى من بيت لحم بزغت اشعة الشمس من فوق الجبال ثم ساروا من بيت لحم الى حبرون (الخليل) والارض هنالك لم تزل تفيض لبنًا وعسلاً كما كانت في سالف عهدها ولو قلَّ خصبها الطبيعي في بعض الانحاء لما تولاَّها من الاهمال

وبعد بيت لحم بساعة من الزمان وصلوا الى البرك التي تقرها ملوك اسرائيل في الصخر حياضًا للمياه وجرُّوا الماء منها في قناة من الحجر الى اورشليم وهي ثلاث يختلف طول كل منها من خمس مئة قدم الى ستمئة وقد مُلطت كلها من داخلها ملاطًا صابًا وهي تسمى الى الآن برك سليمان ولا سبيل لانكار هذه النسبة الى سليمان الملك الحكيم العظيم . والظاهر انهُ انشأ هنالك بساتينهُ وفراديسهُ التي ذُكرت في سفر الجامعة وبنى القصر الذي لقي فيهِ ملكة سبا وكانت قد جاءت من اقصى بلاد اليمن لتمتحن حكمتهُ

اين تلك البساتين والفراديس واين مَن ضمَّت من ربَّات المجد والجمال . اصحيح ما قالهُ الجامعة ان الكل باطل وقبض الريح . لماذا هذا الفناء . اين الملوك اين الجبابرة اين الذين كلامهم اسرار الحكمة واسمهم يملأ كل قلب هيبةً ووقارًا . لماذا لم يبقَ في بلاد العرب ملكات يغادرن عروشهنَّ ويمضين الى غوامم ملوك آخرين فيزرن قصور لبنان وبعلبك وتدمر ولكن اين تلك القصور ولماذا لم يبقَ منها غير الاطلال الدوارس

وكأني برجل من الاوربيين هاجر اسلافهُ بالامس من حواجز البلدان الشمالية التي لم تزل

مسارح للوحوش وهو يكلك الآن عن العمران والارتقاء . وما هو هذا العمران وفيمن اي شيء نتج. قامت الممالك ثم اندثرت وعظمت ثم اندرست والاوربيون يتناظرون على مسلة يحتملونها من بلاد نائية لكي يزينوا بها عواصمهم وقد نُسيت اساليب الصناعة وعفت سُبُل التجارة ودُرست مدارس العلم والفلسفة ومع ذلك كله ترى هؤلاء الاوربيين يكلمونك عن العمران والارتقاء كأنهما غرس ايديهم لانهُ اتفق لبعض رجالهم ان استخدم بعض المبادىء العلية في ما يقلل التعب ويزيد الراحة فحسبوا ذلك عمرانًا وباهوا به

ثم مالت الشمس الى المغيب وانبسطت اشعتها على سهول فسيحة تتموَّج فيها الهضاب تموُّج البحر وتتوج بالزرع والضرع . حقول الحنطة وبساتين الزيتون وقطعان الغنم وكروم العنب وفيها عرازيل النواطير كما كانت في ايام داود الملك. حينئذٍ بلغ تنكرد حبرون مدينة ابرهيم الخليل وقد نسي ابناء اسمعيل ما عامل به ابوهم من الجفاء فاكرموا مقامهُ فيها ونسوا اسمها العبراني ونسبوها اليهِ فتعرف عندهم بمدينة الخليل الى الآن . وعلى ساعة منها سهل كثير الكلا فنصب تنكرد خيامهُ فيهِ لكي يبيت تلك الليلة ثم يقوم في الصباح ويخرج من ارض الموعد ويضرب في القفر العظم المخيف حيث لا ماء ولا مرعى

كان بنو اسرائيل قبيلة من قبائل العرب مثل بني قحطان وبني كلب وبني سليم وبني عامر تركوا البداوة ودخلوا بلاد الشام ليتحضروا فيها فلم يرحّب بهم اهاليها فغادروها الى القفر ثم راقهم خصب الديار المصرية فرحلوا اليها ونزلوا فيها كما نزلت فيها قبائل العرب بعدهم. وجار عليهم ملوك مصر واذلوهم فاحتملوا الذل ما استطاعوا احتمالهُ وهم في الاصل من قبائل القوقاس التي نشأ منها اعظم شعوب الارض. انتشروا في بلاد الجزيرة ودخلوا بلاد العرب من انحائها الشمالية وكان من امرهم ما كان الى ان ثقل عليهم نير المصريين وقام منهم موسى الكليم رجل عظيم متوقد الذهن حصيف الرأي تساوت فيهِ قوة الاستنباط وقوة العمل وبلغتا اسمى درجاتهما. رجل من اعظم رجال الجنس القوقازي يكاد يكون كاملاً مثل آدم لما خرج من يد صانعهِ

لكن الله لم يدعْ موسى ليخرج بني اسرائيل من رياض مصر ويردهم الى قفار بلاد العرب ويقتصر عملهُ على ذلك بل لكي يعلن لهم مشيئتهُ والعهد الذي عاهد بهِ نوع الانسان

ولو شاء ربُّك لاتخذ احقر مخلوقاتهِ على اتمام مقاصدهِ لكنهُ لا يفعل ذلك بل يختار اعاظم الرجال لاعاظم الاعمال يختار ذوي الآراء الصائبة والقرائح الوقادة يختار المشرعين او القواد او الشعراء او الخطباء ذوي النفوس الذكية والافئدة المتوقدة مثل موسى ويشوع وداود وسليمان ومن هذا القبيل اشعياء الذي لا تقلُّ فصاحتهُ عن فصاحة ديموستنس خطيب اليونان اذا نظرنا

اليها من وجهة البشر . وهاتان الامتان امة اليهود وامة اليونان مدّنتا الدنيا قبيلة من بلاد العرب وقبيلة من بلاد اجيا وضعتا اساس معارف الناس ولولا اورشليم وأثينا ما سمعنا عن مصر وبابل ونينوى وقورش واحشويروش

استيقظ تنكرد باكرًا لكي يقطع البلاد الفاصلة بين ارض الموعد وبلاد العرب قبلما يشتد حر النهار وهنالك تلال تفصل ارض كنعان عن نجد مرتفع يشبه صحراء الشام لكنهُ ليس فقرًا يلّ تغطيهِ الاعشاب والانجم ثم يقلّ النبات فيهِ رويدًا رويدًا ولا تظهر الانجم الاَّ في رؤوس الكثبان ثم يستحيل الرمل صخرًا ولا يبقى من النبات الاَّ القتاد وبعدها آكام شاخصة تغطيها حجارة الصوان

سار تنكرد ورجالهُ في هذا القفر ثلاثة ايام وكانوا يبيتون حيثما وجدوا شيئًا من المرعى لجمالهم وللحال تُنصب الخيام وتوقد النار ويجلس تنكرد والشيخ حسن ويتحدثون مدةً الى ان يروج الطعام فيأكلون ويشربون القهوة الحجازية ويدخنون التبغ الكوراني ويتكىء كلٌّ منهم وهو ينظر الى قبة السماء ونجومها العديدة . ولا ابدع من ذلك المنظر ولا يتصوَّرهُ الاَّ من رآهُ

وكانوا قد اقتربوا من جبل سعير وعليهم ان يقطعوا جبال الشراة الممتدة من هناك الى جبل سينا . وكان بين الشيخ حسن والقبائل النازلة في تلك البلاد ثارات قديمة فكنت تراهُ قلقًا حذورًا يسير امام قومهِ يتفقد الآثار ويستطلع البلاد من اعالي الآكام حتى اذا بلغ جبال الشراة اطمأنَّ بالهُ وقال لتنكرد "قد جزنا الخطر ولم يبقَ داعٍ للتحرّش والحذر لا لاني اخاف احدًا ولكن لاننا اذا التقينا بالعدو فإما ان نقتلهُ واما ان يقتلنا" . ولم يكن هذا الرجل شيخ قبيلة الجلاحة كلها بل كان شيخ بطن منها فاذا اجمع رأي القبيلة وشيخها الاكبر او اميرها على مقاتلة قبيلة اخرى وجب عليهِ ان يقاتل معها ويعادي اعداءها

وفي الصباح صعدوا في الجبال وتقدموا من اكمة الى اخرى الى ان كانت الساعة الثانية بعد الظهر فبلغوا مضيقًا بديع المنظر قامت الشواهق على جانبيهِ وهي مصبّغة بالوان تزري بالوان الشفق فمن احمر كميت يليهِ احمر دموي ثم جلناري ثم برتقالي ثم اصفر فارجواني فازرق . الوان قوس السحاب مبسوطة على تلك الشواهق وفوقها ذهب وهاج ثم صخور بيضاء كالبان النوق وبينها اشجار الدفلة والسنط وفوق الكل قبة السماء لا سحاب فيها ولا غيم والطريق متعرّج في ذلك المضيق بين الانجم والصخور

لما نظر تنكرد الى ما حولهُ وقف مبهوتًا ثم صرخ قائلاً هذه هي الارض المسحورة وهذا هو الآل الذي يراهُ الرائي لحظة ثم يزول

ولما بلغوا منتصف المضيق عدا الشيخ حسن بغتةً ورشق اكمة صغيرة برمحهِ ونادى رجالهُ وهو يقول لهم هنا آثار خيل وجمال سارت امامنا في هذا المضيق ولم تقطعهُ بل بقيت فيهِ فكونوا على حذر

فأجابهُ باروني قائلاً نحن خمسة وعشرون رجلاً مسلحًا فمن يستطيع مقابلتنا في هذا المضيق من الطيّاح

فقال الشيخ حسن هؤلاء ليسوا منهم ولا من عرب غراشة ولا من عرب مازن لاننا متآخون . ثم قال واحد من رجالهِ لعلهم من بني علي : —

وكانوا عند منعطف في المضيق فلما قطعوهُ رأوهُ يمتد امامهم مسافة طويلة على خط مستقيم فقال الشيخ حسن اني أرى الفرسان امامنا وهم من بني علي فتقدم اليهم هو وتنكرد وباروني وقالوا سلامٌ فقالوا سلامًا . ثم قال واحد منهم اننا نعلم من انتم ومن أين اتيتم فان هذا اخو ملكة الانكليز فليمضِ معنا وسيروا انتم بامان الله

فقال الشيخ حسن ان هذا اخي واخو كل واحد منا فلا ندعهُ يسير معكم وحدهُ وانتم من انتم

فقالوا نحن بنو يثرون وقد بعث بنا اميرنا اليكم للسلام عليكم فهلموا بنا الى السهل لان هذا الوعر لا يصلح لجمالكم ولا بدَّ لنا من اخذ اخي الملكة رضيتم او لم ترضوا

فنظر باروني الى ما حولهُ وقد امتقع وجههُ وقال قد دنت المنية ولا سبيل للنجاة من هؤلاء الناس . وزعق الشيخ حسن في زعيم القوم وقال لهُ قف مكانك والاَّ اوردتك حتفك وللحال علت الصيحات من المضيق ونظر تنكرد ورجالهُ واذا الارض حولهم تموج بالرجال وهم مسلحون بالبنادق والرماح

فقال باروني لتنكرد يظهر لي يا مولاي اننا وقعنا في مكيدة كادها لنا هؤلاء الملاعين والظاهر ان خبرك وصل اليهم فاتوا من مكان بعيد لكي ينهبوك

ونظر الشيخ حسن الى مقدم القوم وقال لهُ كم عدد رجالك يا ابن الانذال فاجابهُ ذاك باسمًا لو عددت رجالك وخيلك وجمالك وسيوفك ورماحك لكنا اضعاف اضعافها ولو شاء اميرنا ان يأتي الى هنا لجاء بعشرة آلاف فارس

فقال الشيخ حسن لباروني قُلْ لاخيك اني لا اتركهُ ابدًا بل اسقك دمي لاجلهِ واسألهُ ماذا يريد ان تفعل

فقال تنكرد لباروني اسأل هؤلاء الرجال ماذا يبغون حقيقة . فقال باروني انهم يبغون سيادتكم ويحسبونك أخًا لملكة الانكليز فيأخذونك اميرًا ويطلبون فكاكك مبلغًا كبيرًا من المال

— أليس بينهم وبين الجلالحة ثارات

— كلاَّ وهم غرباء عن هذه البلاد ولا شبهة في ان هذه المكيدة كيدت لنا في القدس

فقال تنكرد ان موقفنا في هذا المضيق يقضي علينا ويسوءني ان اعرّض هؤلاء الرجال للهلاك فقل لهم يا باروني انني لست اخًا لملكة الانكليز واني اقاتل حتى أُقتل فلا أمل لهم بالفدية ولا بالفكاك

وكان الشيخ حسن منتصبًا على صهوة جواده كالصنم وقد اشرع رمحهُ في يدهِ واستعدَّ للقتال وتقدَّم باروني الى القوم وجعل يجادلهم ويكثر من الحيل والاكاذيب وقال لهم ان تنكرد ليس اخًا لملكة الانكليز ولكنهُ ابن شيخ من مشايخ بلادها وكل الخيل والجمال والقطعان لابيهِ ليس لهُ فيها شيء وانهُ تخاصم مع ابيهِ فطردهُ من بيتهِ واذا أُسر لا يفكهُ بمئة غرش . ثم عرض نفسهُ اسيرًا بدل تنكرد وقال ان الشيخ حسنًا ونصف رجالهِ يبقون عندكم رهائن الى ان آتيكم بفكاكي . فلم يصدقوا كلامهُ بل اصرُّوا على طلب تنكرد وهم يلقبونهُ اخا الملكة

فعاد باروني وهو يقول قد فرغت جعبة الحيل وهذا شيء لم ارَ مثلهُ في حياتي . فقال تنكرد اذًا لا بدَّ لنا من ان نعبر هذا المضيق على رغمهم وان متنا متنا رجالاً فليختر كلٌّ منكم رجلاً يسدّد رصاصهُ اليهِ حتى لا يذهب رخيصًا بل يأخذ ثارهُ قبل موتهِ وها انا قد اخترت ذلك الرجل المتلثم بالكوفية الحمراء . وقُلْ للشيخ حسن ان يخبر رجالهُ ليكونوا مستعدين للقتال ثم التفت الى خادميهِ فريمن وترومن وهما انكليزيان وقال لهما قد اشتدَّت الازمة علينا ولا بدَّ من مقابلة القوة بالقوَّة فان نجونا وعدنا الى منتكيوت ملَّكتكما الاراضي التي كنتما تزرعانها. فقالوا لهُ لا تهتم بامرنا يا مولانا ولولا هذه الصخور ما ابقينا على احد من هؤلاء الانذال

فقال تنكرد لباروني استعدون انتم. قال مستعدون فقال اني سلمت نفسي لله قال ذلك واطلق فردهُ على الرجل المتلثم بالكوفية الحمراء ثم اطلقهُ على رجل آخر وعدا مسرعًا في ذلك المضيق وللحال اطلقت البنادق كلها وعلت الصيحات واشتبك الرجال واشتدَّ القتام وعلا دخان البارود حتى لم يعد احد يرى احدًا ثم هبَّت الريح بغتةً فانقشع الدخان ونظر تنكرد واذا هو في طرف المضيق ووراءهُ شرذمة من رجالهِ وامامهُ جموع متجمعة كانها تنتظر وصولهُ اليها وكان سيفهُ مسلولاً بيدهِ وهو يقول لا تبيعوا نفوسكم رخيصة. فاصيب بضربة في يدهِ اوقعت السيف منها وعثر بهِ جوادهُ فسقط وللحال انقضَّ عليهِ اولئك الرجال وربطوهُ وشدوا الوثاق وزعيمهم يقول لهم ان كل نقطة من دمهِ تساوي الف كيس

القسم الرابع

الفصل الاول

دخل الفصل بسكواليجو وبيت بسو بعد قيام تنكرد من القدس بعشرة ايام فسأله الباريزي الذي بيتهُ عند البرج اتعرف اين بسو الآن فقد مضى عليَّ نحو ساعة هنا ولم ارَ احدًا وهل بلغتك الاخبار

فقال بسكواليجو من لم تبلغهُ والناس يتحدثون بها كبيرهم وصغيرهم

فقال الباريزي . هات اخبرنا اذًا عمَّا سمعت

بسكواليجو — سمعت اشياء يعرفها كل احد واشياء أُخرى لا يعرفها احد غيري

الباريزي — لا بدَّ اذًا من ان تكون قد رأيت احدًا اتى من هناك

بسكواليجو — هذا امر لا بدَّ منهُ . ولما قال ذلك كان الغلمان قد قدَّموا اليهِ الحجر (الشبق) فاخذهُ وجعل يصلح النار التي على الشبَّ

الباريزي — فهل حضر الواقعة بنفسهِ

بسكواليجو — اي واقعة انت تعني

الباريزي — اذًا صاحبك سامع لاناظر

بسكواليجو — الامر صحيح سواء سمعهُ او نظرهُ

الباريزي — الفرق كبير وما راءٍ كمن سمع

بسكواليجو — لكنهُ سمع ورأى

الباريزي — فاذًا قد حضر الواقعة

بسكواليجو — نعم حضرها

الباريزي — اخبرنا اذا هل قُتل الامير الانكليزي عمدًا او قُتل اتفاقًا

ولم يكن بسكواليجو قد سمع شيئًا عما اصاب تنكرد فتاوَّه وقال — كأنهُ عارف بالامر كلهِ " ان الخطب جلل والمسألة كبيرة "

الباريزي — نعم المسألة كبيرة والخطب جلَل فان كان قد قُتل اتفاقًا انتهت المسألة بالمذاكرات السياسية والانكليز يريدون قبرص فيأخذونها تعويضًا عن ذلك واما اذا كان قد قُتل عمدًا فلا بدَّ من الحرب لان شرائع الانكليز تقضي عليهم بالحرب اذا قتل واحد من بيت الملك

فنظر بكواليجو كن همّهُ هذا الامر كثيرًا ثم ابعد حملة الكهرباء عن شنيو وقال لقد وقعنا في مشكل كبير

الباريزي — نعم المشكل كبير ولكن الاشكال لم يبتدئ حتى الآن لاننا مختلفون في هل ذلك القطر من اراضي الشام او من اراضي مصر فاني انا اقول انهُ من اراضي مصر وابن عمي يقول انهُ من اراضي الشام ورفائيل تفنه يقول ان البدو مستقلون لا هم خاضعون للباب العالي ولا لعزيز مصر

بكواليجو — ان انكلترا تطالب كل البلدان المجاورة لمحل الواقعة سواء كان البدو مستقلين او خاضعين لغيرهم . ولا يمكن ان تخلي عن دم امير من امرائها ولا بدَّ من سير الجنود التي هنا كلها الى محل الواقعة باسرع ما يكون

الباريزي — لو ذهبت الجنود التي هنا والتي في دمشق وذهب الوالي معها ما قدروا كلهم ان يأخذوا حقًّا ولا باطلاً من العرب

بكواليجو — اذًا يطلب الانكليز من محمد علي ان يؤدّب العرب

الباريزي — هذا الذي اقولهُ ولا بدَّ للانكليز من ذلك فيرسلون بارجة حربية الى الاسكندرية و يطلبون من محمد علي ان يستأصل قبيلة العرب التي قتلت اخا الملكة فيجيبهم بالاغضاء ويقول انهُ لما كانت جنودهُ في الشام ما كان احد يعتدي على اخوة الملكة فيغتاظ بامرستون و يأمر

بكواليجو — لا شأن لبامرستون الآن لانهم عزلوهُ وعينوهُ حاكمًا لجزيرة صغيرة

الباريزي — اتظن اني اجهل ذلك ولكنهم يستدعونهُ الى الوزارة ثانية لانهُ ليس عندهم اشد منهُ ولا يمكن ان يحاربوا الاّ وهو في الوزارة فياخذ قيادة جنودهم البرية والبحرية حتى لا يعصي احد لهُ امرًا فيمتلكون القدس ويفتحون الاسواق لبضائعهم في كل بلاد الشام لانهُ لا يهدأ بالهم حتى يتعمم كل اهالي هذه البلاد بعمائم من منسوجات مانشستر

دار هذا الكلام بين بكواليجو والباريزي في بيت بسو وكان بسّو حينئذٍ في غرفتهِ منتظرًا مجيء ابنتهِ حواء وهو في اشد الاضطراب. ثم دخلت حواء وقالت لهُ ماذا تريد يا ابتاه وماذا حدث حتى اراك قلقًا مضطرب البال

بسو — اصابتنا الضربة العاشرة من ضربات مصر يا بنتي. منذ خرج ابرهيم باشا من هذه البلاد لم تصبنا مصيبة مثل المصيبة التي اصابتنا الآن

بفخر الدين

كلاَّ كلاَّ ولكن بشاب آخر في سنو شاب يهمني امرهُ جدًّا وان كنت لا اعرفهُ ان كنتِ لا تعرفهُ فهو ليس ابن عمي . لقد اقلقتني يا ابي فاخبرني من هو

ان هذا الحادث غاظني اكثر من كل الحوادث التي مرَّت بي مع انهُ متعلق بشخص لم تسمعي اسمهُ ولا رأيتهِ فاعلمي انهُ زار القدس منذ ايام شابٌّ انكليزي من اعظم امراء الانكليز

فقالت نعم وكاد صوتها يخنق

وقد اتاني بكتاب من افضل الناس واعظمهم من رجل انا ونحن كلنا مديونون لهُ دينًا عظيمًا بل كل ما عندنا منهُ ولولاهُ ما كنَّا الآن في قيد الحياة . وقد كان عليَّ ان افعل كل ما يطلبهُ هذا الشاب مني وكنت افعلهُ عن طيب نفس وكان يجب عليَّ ان ارقبهُ كحدقة عيني واعرض عليهِ خدمتي عرضًا لكن وا اسفاهُ انا الملوم ولا يلام احد غيري . بعث اليَّ بهذا الكتاب مع واحد اعرفهُ من اتباعهِ فخشيت ان اثقل عليهِ . وقد بلغني انهُ متعصب في ديانتهِ فخفت ان ازورهُ فينفر مني

فقالت حواء وماذا جرى لهُ . ولم تستطع ان تخفي انزعاجها ولكن ظهر كأنها مضطربة لاضطراب ابيها

فقال ذهب منذ ايام لزيارة جبل سينا ومعهُ حرس كبير فاسلموهُ في البرية واسروهُ بعد حرب دموية

حواء — حرب دموية !

ابوها — نعم ولكنهم اضطروا اليها اضطرارًا لان العرب حصروهم في مضيق لا نجاة لهم منهُ فاحتدم الشاب غيظًا واقتحم المضيق وحاربهم مستقتلاً فقتل بعض المهاجمين ولم يقتل من رجالهِ الاَّ قليلون ولولا وجودهُ بينهم لقُتلوا كلهم لان المهاجمين كانوا يقصدون القبض عليهِ حيًّا ليأخذوهُ اسيرًا ويأخذوا فكاكهُ . وقد تمكَّن من الخروج من المضيق هو ورجالهُ ولكنهم وجدوا السهل مملوءًا بالرجال فاضطروا الى التسليم ولاسيما بعد ان وقع جريحًا

حواء — أجُرح

ابوها — نعم ولكني ارجو ان يكون جرحهُ طفيفًا وقد ارسلوا تابعهُ الى هنا ليأخذ لهم فكاكهُ . كم تظنين انهم طلبوا الفكاك

فاشارت الى انها لا تعلم

فقال اربعة آلاف كيس

فقالت اربعة آلاف اربعة آلاف أقلت اربعة آلاف كيس فهذا مبلغ كبير جدًّا ولكن

يمكننا ان نساومهم لعلهم يقبلون اقل من ذلك

ابوها — لو كان المبلغ ثمانية آلاف كيس لدفعتهُ والذي يغيظني ويشقّ مراراتي ليس كثرة المبلغ لان والد هذا الشاب امير عظيم غنيٌّ جدًّا فلا يصعب عليهِ دفعهُ ولكن هذا الشاب قد أرسل اليَّ وطلب مني ان اعتني بهِ واحرسهُ وابذل جهدي في كل ما يؤول الى راحتهِ ورفاهتهِ فلم ارَهُ وقد جُرح وأُسر

فقالت حواه وهي مطرقة الى الارض. ولكن انهُ كان قد تجنّبك فكيف يكون اللوم عليك. قالت ذلك كأنها تخاطب نفسها

ابوها — لا يمكن ان يكون قد حسبني اكثر من صرّاف يهودي يرسل اليهِ خادمهُ حينما يحتاج الى النقود . وكان عليَّ ان لا ادقق معهُ في هذه الامور بل اقف عند بابهِ كل يوم الى ان يتفضل وينظر اليَّ . نعم هذا كان الواجب عليَّ

حواه — كلاَّ يا ابي كلاَّ انك مغتاظ ولذلك تقول هذا القول فان هذا الشاب ليس كما تظن او على الاقل اني ارجح انهُ ليس كذلك . فقد بلغك انهُ متعصب ولكنهُ قد يكون حسن التديُّن فقط وقد تكون افكارهُ متجهة الآن الى امور اسمى من حطام هذه الدنيا . والذي يجشم المشاق لزيارة جبل سينا يستحيل ان ينظر الى اليهود بعين الازدراء

ابوها — ولكن كيف ينظر الى الذين اسروهُ . هذه هي الضربة القاضية . اتعلمين من رشقني بهذا السهم الصائب . جدُّك ابو امك

فغطّت حواه وجهها بيديها وهي تقول الخائن الخائن الدنيء القبيح

ابوها — كلاَّ يا عزيزتي كلاَّ انهُ ليس من الخونة فان جدَّك لم يقصد لنا شرًّا ولا يعلم شيئًا عن علاقة هذا الشاب بنا بل قد اسروهُ على جاري عادة البدو لكي يأخذ فكاكهُ فهما لحقني من الضرر بسببهِ لا يمكنني ان اتهمهُ بالخيانة ولا بتعمُّد ضرري

حواه — اصبت يا ابي وانا لم اقصدهُ بل كنت افكّر في شخص آخر. والآن ماذا نقصد ان نفعل

ابوها — اولاً ان ابرّئ نفسي من هذه التهمة الشنعاء فان هذا الشاب اتى الى هنا ومعهُ اوامر صريحة لا يمكنني ردها لكي ادفع اليهِ كل ما يطلبهُ من المال ثم مضى الى القفر فاسرهُ حميّ ابو امكِ وارسل اليَّ يطلب فكاكهُ مني . هذه هي واقعة الحال التي يتحدَّث بها الناس ولا يمكنهم ان يستنتجوا منها الاَّ نتيجة واحدة وهي اني متواطئ مع جدكِ على سلبهِ وقد استنتجوها الآن على ما بلغني وصرت اخجل ان تقع عيني على عين احد من الناس حتى

على عين زواري الذين يأكلون طعامي ويدخنون تبغي. ولا لوم عليهم ولا تثريب اذا ظنوا بي الظنون لانهم لا يعرفون دخيلة الامر

حواء — انت بريء من ذلك فليقل الناس ما شاءوا

ابوها — نعم انا بريء ولكن لا بدَّ لي من دفع الفكاك من مالي الخاص . وغرامة اربعة آلاف كيس ليست مما يسرُّ النفس لا سيما واني سادفعها عن انسان لم ارَ وجههُ ولم يدخل باب بيتي ولكن لا بدَّ لي من ذلك لان جدك الذي صالحتهُ مع محمد علي واخذتُ لهُ الامتياز بحراسة ركب الحج مدة خمس سنوات فاكتسب بذلك اثني عشر الف جنيه جدك هذا غرَّمني هذه الغرامة ولولاك للعنتُ الساعة التي امتزج بها دمي بدمه

حواء — لا تقل ذلك يا ابي بل ارسل اخبره بواقعة الحال وانا واثقة انهُ يغضي عن طلب الفكاك ويندم على ما فعل

ابوها — ما اقلَّ معرفتك به فاعلمي اني انا وهو على طرفي نقيض هو يكرهني وانا اكرههُ ولم نجتمع الا افترقنا على خلاف واني افضل دفع الفكاك كلهِ من مالي ولا اطلب منهُ معروفاً. ولكن كيف ادفع الفكاك من مالي وفي هذا الشاب الانكليزي من الكبرياء والعتو ما جعلهُ يهجم على الاعداء وحدهُ في مضيق مملوء بالرجال والبنادق. اتظنين انهُ يقبل ان يتندى بمال رجل يهودي. ما اقل ما تعرفينهُ عن الانكليز فانهُ لا شعب في الدنيا اشدُّ منهم انفةً وعتوًّا وعناداً فانهم يسكنون جزيرة يغطيها الضباب ويأكلون اللحم النيء ويشربون النبيذ المثلث ويضحكون على آبائهم . وامراؤهم يقضون اوقاتهم في الصيد والقنص وهم اقوياء اغنياء كالملوك والبلاد كلها في يدهم واذا نفدت اموال رعاياهم نهبوا مغوك الهند

حواء — ولكنك تقول ان هذا الشاب على جانب من التقوى والورع

ابوها — نعم كذا قيل لي ولكن ما هو غرضهُ من المجيء الى هنا فاني اعرف تابعهُ الذي كان مأسوراً معهُ واتى ليأخذ فكاكهُ وهو من خدام الصيدوني ونحن نعرف مقاصد ذلك الرجل العظيم ويظهر من ارسالهِ خادمهُ مع هذا الشاب انهُ يهتم بامرهِ اهتماماً عظيماً فلا يخلو الامر من مقاصد اخرى . لعنة الله على ذلك اليوم لعنة الله ثلاثاً

حواء — ليس هذا شأنك يا ابي ولا يليق هذا بحكمتك وشهرتك. هلَّ نرَ الرجل الذي تقول انهُ تابعهُ ونسألهُ عنهُ ونبحث في الامر فاني ارجو ان نجد لنا منهُ منفذاً